مجازر الحملة ! ! !

مع اقتراب نهاية القرن العشرين، وبعد حوالى خمسمائة عام من ممارسة الغرب للإستعمار، وإنكشاف كل ما يواكبه من إعداد وإجراءات وممارسات، وبعد أن كتب العديد من أمناء نفس ذلك الغرب لكشف الإستعمار ومراحله وتقنيات إنسحابه، بل تناولوا ما يتبعه أو ما يفرضونه من أنظمة عسكرية يواصل المستعمر نفوذه من خلالها، وكل ما يفرضه على البلدان التى تم إستعمارها من عمليات تغريب وطمس لهويتها وثقافتها وتراثها ودينها[1] . . . وانكشف تكرار هذه المنظومة حتى مل التكرار نفسه، لم يعد يحق لأى مخلوق، أيًا كان إنتماؤه أو اتجاهه، أن يصف الحملة الفرنسية على مصر بغير حقيقتها وبغير ما وصفها به من صنعوها وعاشوها: فقد كانت حملة صليبية إستعمارية بكل المقاييس وبكل أبعاد هذه العبارة . . .

كما أن هناك أطراً عامة لا يجب إغفالها عند تناول هذه الحملة: الإطار الدينى، والإطار السياسى، والإطار الاقتصادى، والإطار الحضارى، إلى جانب الآليات العامة من إعداد وأسلوب وممارسات.

إن الخلفية الدينية البعيدة المدى تكشف عن العداء الغائر فى الغرب المسيحى الذى لم يكف عن محاربة الإسلام منذ بداية انتشاره حتى يومنا هذا. فمنذ الحرب الصليبية الأولى حتى مطالبة يوحنا بولس الثانى بتنصير العالم قبل عشية الألفية الثالثة، والمطلب واحد لم يتغير. . . أما من الناحية الدينية المواكبة للحملة الفرنسية على مصر، ففى عام ١٤٩٢ كان الغرب المسيحى قد أنتهى من إنهاء دولة الفتح الإسلامى فى الأندلس وبدأ يدبر الأمر لوقف إمتداده من الطرف الآخر الممثل فى الأمبراطورية العثمانية. وكانت مصر تحتل الصدارة فيها بحكم موقفها وماضيها الحضارى وبحكم الإعداد لنهضة إسلامية جديدة بقيادة الأزهر وعلمائه.

---

(١) راجع كتاب سرج لا توش عن «**تغريب العالم**» وقد ترجم إلى العربية.

واتسم الإطار السياسى العام بالصراع بين القوى الإستعمارية لتقاسم النصف الجنوبى من العالم والأستحواذ على موارده الطبيعية... أما فى الفترة المواكبة للحملة فكانت انجلترا البروتستانطية قد نجحت فى إقتلاع النفوذ الفرنسى من الهند. ولم تكن فرنسا الكاثوليكية لتقبل بهذه الهزيمة المزدوجة وتبحث عن أقرب الطرق للوصول إلى الهند وجنوب شرق آسيا.

أما الإطار الاقتصادى فهو مرتبط بالإطارين السابقين، فهذا النصف الجنوبى الذى جعلوه متخلفًا ووصموه بعبارة «العالم الثالث» من جراء استغلالهم له، يحتوى على أهم وأثمن الموارد الطبيعية من بترول ويورانيوم ومعادن نفيسة ومحاصيل...

ولا يقل الإطار الحضارى أهمية، فبينما كان الغرب يغط فى غياهب الظلمات والتعتيم، كانت الحضارة الإسلامية فى أوج ذروتها وتحمل فى خلفياتها أصداء الحضارات السابقة. وراح الغرب ينهل من علماء المسلمين وعلومهم دون أن يغفل طمس معالم هذا الفيض الإسلامى، فطمس حتى معالم الأسماء ليصبح ابن رشد: أفيرويس، وابن سينا: أفيسين، وابن باجه: أفمباس، والفارابى: فرابيوس... حتى اسم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام طمسوه إلى: «ما أوميه»، وهم أول من يعلم أن الأسماء لا تترجم ولا تحرف وإنما تكتب كما هى.

وإذا ما نظرنا إلى منهج الحملة الفرنسية على مصر لوجدناها تتسم بكل مكونات المنظومة الإستعمارية السابقة لها أو التالية عليها، مع تفاوت فى المستوى الحضارى للآليات... فالإعداد والأسلوب والممارسات والتغريب تكرارية واحدة. فالإعداد تضمن مختلف أنواع التجسس بالرحالة والمستشرقين والمبشرين والسياسيين. والأسلوب كان قائمًا على الغش والخداع من أول بيان أذاعه نابليون، إلى جانب استغلال بعض الأقليات – من أى ملة – تقبل التعاون معه. والممارسات تضمنت الإبادة بقدر الإمكان، والسلب والنهب والتدمير والحرق والترويع والأغتصاب. أما التغريب فقام على تغيير العادات والتقاليد وإباحة بيع الخمور وإفشاء الدعارة والقمار. بل ولم يختلف عنصر النفقات، إذا اهتم نابليون ومن سبقوه فى التخطيط أن تكون نفقات الحملة على حساب الشعب المصرى وقوته بل من دمائه وحياته...

ولا يسع المجال هنا لتناول كل الوثائق[1] التى تكشف وتدين هذه الحملة الصليبية الإستعمارية، وكلها بأقلام من قاموا بتنفيذ مجازرها من أكبر رأس لها حتى أقل جنودها شأنًا. وسنكتفى ببعض الاستشهادات، لعلها تجعل تلك الفئة التى لا تعرف للوطن حقًا ولا لله عبادة ولا لأقوامها صلاحًا ولا لهويتها إدراكًا أن تخجل وتكف عن المطالبة بالأحتفال بالعدوان الذى يمثل إنهياراً لحضارتنا ونقطة تحوّل أدت إلى تبعية مذمومة مازالت مستمرة حتى يومنا هذا... تبعية فرّخت وأنجبت هؤلاء المشوهين ثقافيًا وحضاريًا حتى يحتفلوا بمقتل أهلهم وإبادة علمائهم وهلاك أسس النهضة التى كانت فى أفق الشرق...

● **الاستشراق:**

لم يكن فولنيه مواكبا للحملة وإنما سبقها إلى مصر وسوريا فى أعوام ١٧٨٣ و١٧٨٤ و١٧٨٥ ونشر رحلاته عام ١٧٨٧. وقد سافر إلى الشرق ليرى وليدرس عن قرب كيفية هدم الأمبرطورية التركية أو كيفية إضعاف السلطة العثمانية أنذاك. وقد كتب فولنيه عن مصر وحكومتها ونظام أمنها وحمايتها قائلاً: «من الملاحظ أنه فى مصر بأسرها وعلى كل حدودها لا توجد أية حصون ولا معاقل ولا سلاح مدفعية ولا سلاح مهندسين وأن كل سلاح البحرية لا يتضمن سوى الثمانية وعشرين قطعة القابعة فى السويس والتى تم تسليح كل منها بأربعة مدافع منجنيق صدأة، يقوم عليها بحارة لا يعرفون البوصلة» (**رحلة إلى سوريا ومصر** – المجلد الأول).

ويقول جان مارى كاريه: «لقد ارتسمت عملية الاستشراق بمعنى الكلمة وبوضوح فى مصر منذ بداية القرن السابع عشر بسبب العلاقات التجارية والسياسية وبعثات المبشرين... ومن أهم كتابات هؤلاء المبشرين الأب كوبان وكتابه المعنون «**درع أوروبا أو الحرب المقدسة**» عام ١٦٨٦، الذى يوجه طواله الدعوة لكافة

---

(١) قام إدوار جوبى بجمع هذه المراجع الخاصة بالحملة الفرنسية على مصر فى ببليوغرافيا طبعت فى «**مجلة معهد نابليون**» عام ١٩٧٨.

المسيحيين ضد الكفرة المسلمين ويحث كافة ملوك الكاثوليك لإشعال حرب صليبية جديدة ضد الأتراك. وقام الأب كوبان بالإشارة إلى نقاط الضعف فى البلاد وعدم مقدرة المصريين على الدفاع عنه» (**رحالة وكتّاب فرنسيين فى مصر**).

وكان الوجود الفرنسى قد بدأ يخبو فى منتصف القرن الثامن عشر، ووفقًا لتقرير الأب دى بينو «لم يعد بالقاهرة من الفرنسيين عام ١٧٧٧ سوى عشرين شخصا رسميًا بل ولم يكن هناك منذ عامين أى قنصل بها» (**رحلة من إيطاليا إلى مصر وجبل لبنان وفلسطين والأراضى المقدسة** طبع عام ١٧٨٧). الأمر الذى دفع فرنسا إلى تعيين مستشرق فى وظيفة قنصل عام لها بالإسكندرية عام ١٧٩٣، هو شارل ماجللون. ويقول عنه جان مارى كاريه: «إنه من المستشرقين الضالعين ويمثل طليعة أولئك المراقبين الجسورين... وقد سافر فى مطلع عام ١٧٩٧ لتقديم تقريره للحكومة حاثًا إياها على التدخل العسكرى فى مصر».

وقد قام جياردو بنشر هذا التقرير فى مجلته المعنونة «**ريفو ديجيبت**» (مجلة مصر) عدد سبتمبر ١٨٩٦. كما كتب عنه ج. جيمار فى مجلة «**تاريخ المستعمرات**» تحت عنوان: «مستشرقو جيش الشرق» فى العدد رقم ١ عام ١٩٢٨.

«ومن أهم رجال السلك الدبلوماسى الفرنسى آنذاك السيد لومير، قنصل فرنسا فى طرابلس والذى كان أول من أقترح على حكومته بضرورة إرسال بعثة أثرية إلى مصر لكثرة ما بها من خيرات ومخطوطات وآثار يمكن نقلها إلى فرنسا... وتم تنفيذ هذا الإقتراح بإرسال حملة نابليون» (جان مارى كاريه، المرجع السابق).

● **الأستعمار:**

وعبارة: «استعمار مصر» ليست جزافية وإنما هى عبارة قالها نابليون ومختلف المشتركين معه: «سأستعمر مصر! سأستعمر مصر وأستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع والنساء والممثلين..! إن ست سنوات تكفينى للذهاب إلى الهند لو سارت الأمور سيراً طيبًا»! (فى حديثه عن أيام الحملة فى مذكراته من معتقل سانت هيلانه).

أما فى المقارنة التى أجراها بين حملته والحملة الصليبية التاسعة فقال عنها: «إن لويس التاسع أنفق ثمانية أشهر فى الصلاة، وكان أجدى أن ينفقها فى الزحف والقتال واحتلال البلاد»!!.

بينما كتب مونج، أحد أعضاء الحملة ومنظم المجمع العلمى، إلى زوجته: «لو استوطن مصر ٢٠,٠٠٠ أسرة فرنسية ليشتغل أفرادها بالمشروعات التجارية والمؤسسات الصناعية... إلخ لغدا هذا البلد أجمل مستعمراتنا وألمعها وأفضلها موقعًا». أما الجنرال ريبو فكتب فى «**التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية**» قائلاً: «لقد كنا نرابط فى مصر ونحتلها احتلالاً عسكريًا، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه، فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الإقناع... وكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الإذعان لنا بالحزم مرة وبالقوة مرة، وقمع كل ثورة، ومكافأة كل من يخدم السلطة الفرنسية»...

● **مجازر وإبادة:**

وإلى الذين يتشدقون بالمهمة الحضارية والرسالة التحريرية للحملة نقدم بعض المقتطفات التالية وهى بأقلام متعددة ممن ارتكبوا جرائمها: «حين دحر المدافعون على جميع الجوانب، واحتموا بإلههم ورسولهم فملأوا الجوامع، ذُبح الرجال والنساء والكبار والصغار، وحتى الأطفال عن بكرة أبيهم. وبعد نحو أربع ساعات هدأت سورة جنودنا فى النهاية» (الجنرال بواييه فى خطاب إلى والديه).

«ظننا أن المدينة استسلمت، وأشد ما أدهشنا أن ينهال علينا رصاص البنادق ونحن نمر أمام أحد المساجد... فأمرنا قائد اتفق وجوده هناك أن نقتحم باب المسجد ولا نبقى على أحد فيه. وهكذا هلك الرجال والنساء والأطفال بحد السنكى» (الضابط ميليه).

«هناك قرية رفضت إمدادنا بالبضائع التى طلبناها فضرب أهلها بحد السيف وأحرقت بالنار وذبح وأحرق ٩٠٠ رجل وامرأة وطفل ليكونوا عبرة لشعب همجى نصف متوحش». (الجندى فرانسوا إلى أهله).

« وصلنا قرية « نكله » وكانت فرقتا بون وفيال تعملان فيها النهب والسلب وأحدثت صيحات الرجال وولولة النساء ضجيجاً رهيباً » (مذكرات الكولونيل لاجونكيير).

« كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين، وفرضت الغرامات على البلاد ولكن الثورة كانت كحّية ذات مائة رأس، كلما أخمدها السيف والنار من ناحية ظهرت فى ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت (« الجنرال ريبو » **التاريخ العلمى والحرب للحملة الفرنسية على مصر**).

« أصبحت قرية بنى عدى أكواماً من الخرائب، وتكدس القتلى فى شوارعها، ولم تقع مجزرة أشد هولاً مما حل ببنى عدى. وقدر الجنرال دافو عدد القتلى من الأهالى بألفى قتيل، ويقدرهم ديزيه فى تقريره إلى نابليون بنحو ثلاثة آلاف » (مذكرات الجنرال برنييه، رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية).

« لقد قمت هذا اليوم بجولة لمعاقبة قرية قتلت بعض الفرنسيين، فأحرقت القرية وقتلت تسعة من الأهالى، وسيعتبرون بهذا الدرس كما يعتبر به أهالى وادى النيل » (الجنرال مينو إلى الجنرال كليبر).

[والطريف أن مينو هذا هو الذى أدعى الإسلام وتزوج بمسلمة **وما أن عاد إلى** فرنسا حتى قام بتنصير أبنائه وعاد إلى ملته]!.

« لقد أحرقوا مساكنهم بالنار وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والأطفال بحد السيف وفى اليوم التالى كانت دمنهور ركاماً من الأحجار السوداء اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى » (ريبو، المراجع السالف الذكر).

« كانت مدينة دمنهور وأهلها هدفاً لانتقام الجنود، فقد قتلوا من الأهالى نحو ٢٠٠ أو ٣٠٠ وبعد ذلك أمرت بتسليم المدينة لفظائع النهب وسفك الدماء. والآن لم يعد لدمنهور وجود، وقد قتل من أهلها نحو ١٢٠٠ أو ١٥٠٠ ماتوا قتلاً أو حرقاً » (الجنرال لانوس فى خطاب إلى الجنرال دوجا).

« فى كل ليلة نقطع نحو ثلاثين رأساً أكثرها لزعماء الثورة. وفى اعتقادى أن هذا درساً نافعاً » (من مراسلات نابليون إلى رينييه).

« سيق المسجونون إلى القلعة وكنت أتولى فى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام مائتى عشر سجيناً كل ليلة، وكانت جثث القتلى توضع فى زكائب وتغرق فى النيل. وأستمر ذلك ليالى عديدة، ومنهم كثير من النساء ممن نفذ فيهن أحكام الإعدام الليلية » (مذكرات بوريين سكرتير نابليون الخاص).

« خف دافو إلى المكان وفى أول مايو قتل ٢٠٠٠ من الفلاحين المسلمين فى بنى سويف، وكانت خسائر الفرنسيين ثمانية رجال، وهو عمل مجيد بلا ريب » (« لاجونكير » أحد قادة الحملة).

وفى دفاتر الميجور ديتروا البيان التالى عن مجزرة يافا فى مارس ١٧٩٩ :

– فى ٧ مارس مات أثناء الهجوم أكثر من	٢٠٠ تركى
– فى ٨ مارس رمى بالرصاص	٨٠٠ تركى
– وفى ٩ مارس رمى بالرصاص	٦٠٠ تركى
– وفى ١٠ مارس رمى بالرصاص	١٠٤٠ تركى
– الجملة	٤٤٤١ تركى (١)

اللهم لا تعليق على الاستخفاف حتى فى تدوين مجازرهم – وأن كنا نود توضيح أن عبارة « تركى » كانت سائدة فى اللغة الفرنسية إشارة إلى المسلم أياً كان بلده! الأمر الذى يكشف إلى أى مدى كانت رهبتهم من الإسلام فتركيا هى التى كانت تحتل السيادة فى أوروبا.

وكتب المواطن بيروس إلى أمه عن مجزرة يافا قائلاً:

« إن قيام الجنود الحانقين، بعد اقتحام المدينة والإستيلاء عليها عنوة بأعمال

---

(١) الأرقام الواردة بالكشف سليمة ومن الواضح أن سيادة الميجور قد أضاف أرقام ضحايا كشف آخر الجملة من تم قتلهم.

السلب والنهب والتقتيل كيفما اتفق، أمر تقتضيه قوانين الحرب، والإنسانية تسدل قناعًا على هذه الفظائع. ولكن صدور الأمر بعد إنقضاء يومين أو ثلاثة على الهجوم، وبعد أن تهدأ سورة الغضب، فى وحشية هادئة نقتل ٣٠٠٠ رجل استسلموا لنا بسلامة نية! تلك جريمة بشعة ستشجبها الأجيال القادمة ما فى ذلك ريب... إن نحو ٣٠٠٠ رجل ألقوا سلاحهم، فسيقوا على الفور إلى معسكرنا... وفى صباح اليوم التالى سيقوا إلى الشاطىء وبدأت كتيبتان فى رميهم بالرصاص. وكان أملهم الوحيد فى النجاة هو أن يلقوا بأنفسهم فى البحر، ولم يترددوا... ولم تمضى لحظة حتى إصطبغ ماء البحر بدمائهم وانتشرت جثثهم على سطحه... ورجونا صادقين ألا تتكرر هذه الجريمة، وأن يعفى الأسرى الباقون من القتل... ولكن سرعان ما خاب رجاؤونا حين اقتيد ١٢٠٠ مدنى مسلم فى اليوم التالى ليعدموا، وكانوا قد تم تجويعهم لمدة يومين أمام خيمة الجنرال بونابرت. وصدرت التعليمات للجنود بألا يسرفوا فى الذخيرة فبلغت بهم الوحشية أن اعملوا فيهم الطعن بالسنكى... وقد وجدنا بين الضحايا أطفالاً كثيرين تشبثوا وهم يموتون بأبائهم. وسيعلم هذا المثال أعداءنا أنهم لا يستطيعون الركون إلى صدق نية الفرنسيين، وسيقع دم هؤلاء الآلاف الثلاثة الضحايا على رؤوسنا إن عاجلاً أو آجلاً»... (وارد فى كتاب لاجونكيير: **نابليون بونابرت**).

وعن السلب والنهب غير ما تقدم نورد:

«ومن المؤن التى أستولى عليها الفرنسيون فى يافا ٤٠٠,٠٠٠ جراية من البسكويت و٢٠٠٠ قنطار من الأرز، وقد نهب الجنود أكثر من هذا كثيراً قبل أن يتمكن القوميسير الإستيلاء عليه. ولكن الأسرى وجب ضربهم بالنار لأنه لم يمكن توفير الطعام لهم» (لا جونكيير).

«وصلنا يوم ٢٦ سيدور (١٤ يوليو) إلى قرية النجيلة بينما كان جنود الجنرالين بون وفيال ينهبونها وكان صياح الأهالى وبكاء النساء ونحيبهم يصم الآذان» (من يوميات الجنرال لوجيه).

« صادرنا بعض المواشى التى وجدناها فى طريقنا وبينما كانوا يقيدونها كان الجنود ينهبون هذه القرية ويخربونها . إن فرقتنا لم تكن تعمل سوى إتمام خراب القرى التى كان يمر بها الجيش لأن الفرق التى تتقدمنا لم تترك فيها إلا ما لا يمكن حمله أو تخريبه، وفى بعض الأحيان كنا نرى النار مشتعلة فى الغيطان قبل حضورنا بحيث لم نكن نعرف كيف نحصل على ما يلزم من التبن والشعير لخيولنا » (من يوميات الكابتن سافارى) .

« أن الجنرال لتورك جمع الخيول والأموال من جميع القرى المجاورة لدمنهور وأنه أرسل إلى الإسكندرية بستين جملاً محملة غلالاً مما صادره من البلاد » (خطاب الجنرال مورا إلى نابليون فى ٤ ديسمبر ١٧٩٨) .

● **أما عن الإسلام:**

« الإسلام دين تعتيم يصاحبه الاستبداد أو الفوضى . . . الإسلام دين مشئوم حيث أن المبادىء الفاسدة إضافة إلى العقيدة فإنها تحصر الإنسان بين البطولة أو الفسوق . . إن عبارة « الإسلام والعرب » تمثل أسوأ خليط يمكن تصوره لأن دين محمد عبارة عن بضعة وصفات لا يمكنها أن تكفى أمام الجهل الرهيب للعرب . . . وعلى الرغم من تبجيلهم الأعمى للقرآن وطاعتهم المطلقة لكل ما قاله نبيهم، ورغم اللعنة التى تلاحق كل من يبتعد عن ذلك، فهم لم يفلحوا فى الابتعاد عن الهرطقة ولا عن سحر الوثنية » .

تلك هى بعض العبارات الواردة فى كتاب فيفان دينون «**رحلة فى مصر السفلى والعليا**» وكان من رسامى الحملة وتعكس عباراته عن الإسلام ما رضعه الغرب من أكاذيب مستشرقية وفرياتهم وإشعال نار العداء والكراهية لحث مواطنيهم على مواصلة الحروب الصليبية . ولم يتورع جلادوا هذه الحملة الذين زعموا أن مجيئهم لحماية وتحرير المصريين، وقد رأينا شذرات من « حمايتهم » للمصريين، لم يتورع هؤلاء الجلادون عن قتل المشايخ، ليس إنتقامًا وترويعًا فحسب، وإنما « لوأد

النهضة الإسلامية» التى كانت فى طريقها إلى النور – على حد قول محمود شاكر (**رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا**) «إذ كان يقتل فى القاهرة وحدها كل يوم خمسة أو ستة، ويأمر أن يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة، ويقول: «هذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح» وقد أورد الرافعى فى كتاب «**تاريخ الحركة القومية**» تفاصيل هذه المأساة الدامية. وقد رأينا كيف اقتحموا الجامع الأزهر وكيف هدموا المساجد وها هم يقطعون رؤوس المشايخ والعلماء.... وكانت هذه هى أول مرة فى التاريخ يُعدم فيها مشايخ الأزهر وعلماؤه كالمجرمين...

بدأ ضرب الأزهر بالقنابل حوالى الظهر واستمر إلى المساء، وأصدر بونابرت أمره إلى الجنرال بون بأن «يبيد كل من فى الجامع»، بل كانت نيته متجهة إلى هدم الجامع الأزهر إذ أصدر الجنرال برتييه، رئيس أركان الحرب، تعليماته، وهى صادرة إلى الجنرال بون بأمر القائد العام بتاريخ ٢٣ أكتوبر بأن «يهدم الجامع الأكبر ليلاً إذا أمكن وترفع الحواجز والأبواب التى كانت تسد الشوارع».

«وفى نفس ذلك اليوم أصدر نابليون القرار التالى إلى الجنرال برتييه: «تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أمسكوا وبيدهم سلاح. فليؤخذوا إلى شاطىء النيل بعد هبوط الظلام ولتلقى جثثهم المقطوعة الرؤوس فى النهر».

«وفضلاً عن هؤلاء المسجونين أعدم فى القلعة ثمانون عضواً من «ديوان الدفاع» الذى تزعم الثورة، وهكذا نجد جهراً بالعفو عن الأبرياء وإعدام للمعارضين فى الخفاء وتحت جنح الظلام» (كريستوفر هيرولد: **بونابرت فى مصر**).

«وتم قطع رؤوس ستة من المشايخ الذين اتهموا بقيادة الثورة... بل قاموا بإعدام شيخ طائفة العميان بتهمة القيام بعمل مسلح ضد المدفعية الفرنسية».

«ومنذ الحملة الفرنسية على مصر لم يعد لفرنسا أى وجود عكسرى إلا أنها قد أستطاعت من خلال لجنة العلوم والفنون والمجمع العلمى أن تبذل قصارى جهدها

لإدارة أعمالها السياسية والاقتصادية فى مصر على أكمل وجه » (جاك بانفيل : **الحملة الفرنسية على مصر**) ومن الواضح أن هذا النص يرجع إلى ما قبل عام ١٩٥٦ والعدوان الثلاثى على مصر!.

« كانت المهمة الأساسية للمستشرقين المرافقين للحملة الفرنسية القيام بحلقة الوصل بين الشعب والسلطات الفرنسية وترجمة بيانات مجلس القيادة إلى العربية كما كان عليهم القيام بالترجمة الفورية »... (جان مارى كاريه : **رحالة وأدباء فرنسيين فى مصر**).

وعن « أفضال » هذه الحملة فى مجال التحديث والتنوير يقول جاك بانفيل : « إن تحديث مصر أصبح الهدف المعلن، وكان عليه أن يحكم مصر بأسلوب « الحماية » بمساهمة السلطات التقليدية والدينية، وذلك بمواصلة أسلوب لم يتغير: الحرب ضد المماليك، الارتباط بالأقباط واستخدامهم كعملاء إداريين وجامعين للضرائب، وعدم المساس بالسلطة الأسمية للباب العالى، والتوجه إلى العرب بشىء من التبجيل ».

ذلك هو الدور الفعلى للحملة ونشاطاتها الثقافية والعلمية التى لم يتم القيام بها أصلاً إلا لخدمة المصالح الإستعمارية الصليبية الفرنسية.

ولقد غادر نابليون الشرق مهزومًا، فلم يتمكن من الإستيلاء على عكا وترك البحر الأبيض المتوسط فى أيدى الانجليز بعد تحطيم البحرية الفرنسية فى أبى قير، كما لم تتمكن جيوشه من القضاء لا على المماليك ولا على المقاومة المصرية وفر هاربًا كاللصوص فى جنح الليل... ففى ٢٣ أغسطس ١٧٧٩ أبحر نابليون من مصر بعد أن أمضى بها أربعة عشر شهرًا من المجازر والتدمير، فى محاولة غاشمة لإقتلاع الإسلام وطمس معالمه... وفى التاسع من أكتوبر وصل إلى مدينة فريجوس على الحدود الإيطالية الفرنسية، إلى تلك المدينة التى أبحر منها قبل ثمانية قرون الملك لويس التاسع فى حملة مماثلة... تلك الحملة الصليبية التى قادها عام ١٢٤٩ بزعم تحرير فلسطين من سلطان مصر، لكنه انهزم فى المنصورة عام ١٢٥٠ وسجن بها...

وكان نابليون بذهابه إلى تلك البلدة التى ليست بميناء، وإنما تقع على الحدود الإيطالية بين مدينتى نيس وطولون، قد راح ليقدم تقريره عن الحملة الصليبية التى قادها، وليستودع شعلتها، التى مازالت متقدة، لمن يواصلون حروبها من بعده.. وكان قد قادها بنفس الزعم: تحرير مصر من نير الأتراك!! فهل بعد كل ما تقدم، وهى جد قطرات ضئيلة من بحر لجىّ، يفكر البعض فى الاحتفال بحملة لم تكن إلا عدواناً على الحضارة الإسلامية وعلى شعوبها؟ عدواناً خسيساً استخدمت فيه كافة أساليب الغش والخداع والجبن الرخيص فى قتل الأبرياء ليلاً؟!.

فبدلاً من الاحتفال بهذه الحملة الصليبية الإستعمارية على مصر، الأمر الذى يعد خيانة بكل المقاييس، خيانة للوطن ولدم الشهداء وللتاريخ... وبدلاً من تزييف التاريخ وتحريفه، بل وبدلاً من أن يسخر منا صانعوا تلك المجازر وذلك الخراب الأسود، أليس من الأكرم لنا أن نوقف هذه المهانة المبتذلة، المفروضة علينا، ونتمسك بديننا وهويتنا وتراثنا ونطالب السلطات الفرنسية بالتعويض عما ألحقته بنا من بلاء؟! نعم علينا أن نطالبها بالتعويض عن نفقات تلك المجزرة المدمرة والتى تمت على حسابنا والوثائق تشهد بذلك، وتعويضنا عما دمروه فى البلاد وما سلبوه، وتعويض دم الشهداء، وإعادة ما سرقوه من آثار مصرية وقبطية وإسلامية ومخطوطات ونفائس. أليس ذلك ما تتبعه مع ضحاياها الآخرين، أم أن العدل والمساواة اللذان تتغنى بهما لهما معياران ومقياسان؟!

* * *